أعلام المقالة

وسوف نتناول في هذا المبحث نخبة من روّاد المقالة العربية الحديثة، الذين كان لهم الفضل الأول في إرساء دعائمها في أدبنا العربي الحديث، كما عملوا على انضاجها من خلال التفنن في أساليبها والتنوع في موضوعاتها. ومن هؤلاء الأعلام محمد عبده، مصطفى لطفي المنفلوطي وجبران خليل جبران أحمد أمين ومصطفى صادق الرافعي وإبراهيم المازني، ومي زيادة وفهمي المدرس وغيرهم. وسوف تقتصر دراستنا على مصطفى لطفي المنفلوطي وأحمد أمين وعلى مقاليّ من غير الروّاد هو الدكتور علي جواد الطاهر.

1-مصطفى لطفي المنفلوطي :

ولد مصطفى لطفي المنفلوطي سنه 1876 ببلدة منفلوط، إحدى مديريات أسيوط، وتعلم في أول حياته على يد الكُتَّاب، فحفظ القرآن الكريم، ثم أكمل تعليمه في الأزهر، ثم أعجب بمحمد عبده وكان أحد شيوخ الأزهر فانتفع المنفلوطي من أدبه. إن أهم الروافد الثقافية التي أسهمت في إنضاج ثقافة المنفلوطي وجعلت منه واحداً من أبرز روّاد المقالة في أدبنا العربي الحديث هي اطلاعه على التراث الأدبي ولا سيما تلك النماذج الراقية المتمثلة بكتب الجاحظ وابن المقفع وبديع الزمان الهمداني ودواوين الشعراء العباسيين، كما اطلع على كتابات محمد عبده وآثار معاصريه المؤلفة والمترجمة. [1]

فقد عكف على قراءة ما ترجم من قصص ومسرحيات ومقالات، فكان لذلك أبلغ الأثر في تنمية ذوقه الأدبي وإعداده للكتابة في هذه الفنون النثرية الحديثة. وللمنفلوطي فضل

الريادة في مقالاته التي نشرها في أوائل القرن العشرين بصحيفة المؤيد. والتي جمعها في كتابه المعروف (النظرات) ((وتقع النظرات في ثلاثة مجلدات وهي مجموعة من المقالات الاجتماعية فقد اختار المنفلوطي الحياة الاجتماعية لبيئته واتخذها ينبوعا لأفكاره، وتحول فيها بتأثير استاذه محمد عبده إلى مصلح فهو يردد آراء المصلحين من حوله، ويؤديها بلغته التي تأسر السامع وتخلب لبه...فستراه يتحدث في عيوب المجتمع وما يشعر به من مساوئ الاخلاق... ويحسّ أن بعض ذلك جاءنا من المدنية الغربية فيصب عليها جام غضبه، ويدور بعينه في بيئته،فيرى كثرة المصابين بعاهة الفقر فيبكي ويستغيث)).[2]

هذا على صعيد موضوعات مقالات المنفلوطي. ويرى بعض الباحثين ((أن أدب المنفلوطي يمثل خير تمثيل المرحلة الرومانسية التي شهدها الأدب العربي في مصر منذ مطلع القرن العشرين وحتى قيام الحرب العالمية الثانية. فأدبه أدب حزين حافل

بصور البؤس والشقاء والحرمان)) [3] وعبر المنفلوطي في كتاباته ((ذات المسحة الحزينة على حالة الحيرة والتشوق القلق لدى الجيل الناشيء في تلك الفترة)) [4].

أمّا من ناحية الشكل فإن طريقة المنفلوطي لها سمات أسلوبية واضحة، منها ((البعد عن التكلّف، والنأي عن التقليد، والقصد الى الصدق والاهتمام بحسن الصياغة وجمال الإيقاع، ورعاية الجانب العاطفي، ثم الميل إلى السهولة والترسل وترك التعقيد والمحسنات، فيما عدا بعض السجع المطبوع، الذي يأتي بين الحين والحين للإسهام في موسيقى الصياغة)) [5]

وكان ذلك سبباً في نجاحه وهذا ما أَكدته الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي في قولها ((كان نجاح المنفلوطي وشعبيته المباشرة دليلاً على قدرته الأسلوبية وحسب، بل على اختياره الفطري الموفق لموضوعه وتعبيره عن المزاج العام)) [6] ومن مقالات المنفلوطي التي يتجلى فيها خصائص أسلوبه وتفكيره، مقالة ((الرحمة)) .

وهي مقالة أدبية تناول فيها المنفلوطي موضوعاً اجتماعياً،عبر فيها عَمّا يجيش في نفسِهِ من مشاعرٍ وأحاسيس تجاه ما تُعانيه الأكثرية الساحقة من مجتمعهِ آنذاك من الفقر المدقع واستشراء الجهل والتخلف وهيمنة العادات المتخلفة التي كانت تنخر في جسم المجتمع حتّى أمسى في أسوء أحواله.

ويدل على أدبية المقالة هي لغتها الشعرية التي أراد لها المنفلوطي أن توقظ المشاعر وتهز الأحاسيس وتستولي على القلوب كي تحقق المقالة بغيتها في انتزاع الرحمةِ من تلكَ القلوب، وجعلها تُشفق على ضحايا المجتمع وتُساعدهم على تجاوز مِحنِهم في هذه الحياةِ القاسية. ويتجلى ذلك في مقالتهِ (الرحمة) التي قال فيها ((سأكون في هذه المرّةِ شاعراً بِلا قافية ،ولا بحر،لأني أُريدُ أنْ أُخاطبَ القلبَ وجهاً لوجهٍ، ولا سبيلَ الى ذلك إلّا سبيلَ الشعرِ)). ثم يمضي المنفلوطي في توضيح ما تفعله اللغة الشعرية من تأثير، في تأجيج حماسة الناس، وإلهاب مشاعرهم في إغاثة المعوّزين من الناس ومدّ يد المساعدة لهم. وأفصح المنفلوطي عن ذلك بقولِهِ ((إنَّ البذور تُلقى في الأرض، فلا تنبُت إلّا إذا حرثَ الحارث تُربَتها، وجعل عاليها سافِلَها، كذلك القلبُ لا تبلغُ منهُ العِظَةُ، إلّا إذا داخَلتْهُ، وتحلّلَتْ أجزاءَهُ، وبَلَغتْ سُويداءَهُ، ولا محراثَ للقلبِ غيرُ الشعرِ))[7] .

وقد وفّقَ المنفلوطي في هذه المقدمة لأنها من المقدمات التي مهدت ((لملفوظهِ بما يُلفت إنتباه المخاطب))[8] ويحثه على مواصلة قراءة هذه المقالة التي يتداخل فيها النثر بالشعر، فتُثير القارئ بأسلوبها المُشرق وطرافتها الجاذبة وتُغريه بدلالتِها على

تقبّل الفكرة والاقتناع بمضامين المقالة. وهي تتعاون مع العنوان في الإيماءِ بالفكرةِ التي تدعو إليها المقالة.

ومقالة (الرحمة) تعكس ثقافة المنفلوطي التراثيّة، وهي صورة لقراءاتهِ القديمة الدينيّة والأدبيّة التي تلقاها في الأزهر، فقد استقى افكارَها من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والأدب العربي القديم بشعره ونثره، وقد ساقها على شكل مواعظ ونصائح يدعو الآخرين إلى الإلتزام بها بوصفها حلاً ناجعاً لمشاكل المجتمع إذ تَخْلُق السعادة للفقراء وغير الفقراء ويبدو ذلك في قولهِ ((أيها الرجل السعيدُ : كُنْ رَحيماً، اشعرْ قلبَك الرحمة، ليكن قلبُك الرحمةَ بعينها. ستقول إني غيرُ سعيدٍ، لأنَّ بين جنبيّ قلباً يُلِمُّ به من الهمّ ما يُلِمُّ بغيرِهِ من القلوب. أجلْ، فليكُن ذلك كذلك،ولكنْ أطعِمْ الجائعَ واكسُ العاري، وعزِّ المحزون، وفرّج كُربةَ المكروب، يكنْ لك من هذا المجموع البائس خيرُ عزاءٍ يُعزيكَ عن همومكَ وأحزانكَ))[9]

كما تأثر المنفلوطي بالموجةِ الرومانسيةِ التي كانت طاغيّة في عصرهِ، وتجلى ذلك في ظاهرة الحزن التي طبعت أعماله الأدبية ،فأدبه باكٍ وحزين في معظمهِ وفي ذلك يقول المنفلوطي ((ولا أدري ما الذي كان يُعجبُني في مُطالعاتي من شعر الهموم والأحزان، ومواقف البؤس والشقاء وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة))[10]. وتتَّفق رؤيتهُ مع الرومانسيين الذين يَرونَ في الدموع تطهيراً للألم، وإنَّ الحياةَ مصدر الشقاء.((كنت أرى الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين، فلما أحببتُ الرحمةَ أحببت الدموع لحبّها ،أو كأنما أرى أنَّ الحياةَ مواطنُ البؤس والشقاء، ومستقر الآلام والأحزان))[11].

وقد اقتفى المنفلوطي منهج الشعراء الرومانسيين في مقالتهِ هذه، فقد مجَّد الحزن والبكاء،كما أنه خلع شيئاً من مشاعرهِ على الطبيعة، وجعلها معبرةً عما يجيش في نفسه من مشاعر الحزن والألم تجاه ما يعانيه الإنسان من عذاب في هذه الحياة ،فجعل الطبيعة بمظاهرها المختلفة تحزن لحزنهِ وتبكي لبكائه فالسماء تذرف الدموع، والرعد يجأر بالشكوى والأرض تئن بحفيف الريح من شدّة أحزان البشرية وآلامها، وهو يشبه الرومانسيين حيثُ اتَّخذ من الطبيعة معلماً له يستقي منها مكارم الأخلاق، فهي مَنْ تُعلمه الرحمة بالآخرين وتملأ قلبه بحب الآخر والإشفاق عليه ((ليتك تبكي، كلَّما وَقَعَ نظرُك على محزون أو مفؤود،فتبتسم سُروراً ببكائكَ ، واغتباطاً بدموعك، لأنَّ الدموعَ التي تنحدر من خدَّيكَ في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء ! إنك إنسان.

إنَّ السماء تبكي بدموع الغَمام، ويخفق قلبُها بِلَمَعان البرق، وتصرخ بهدير الرَّعد، وإنَّ الأرضَ تئن بحفيف الريح، وتضجُّ بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمةً بالإنسان ونحن أبناء الطبيعة فَلْنُجارها في بُكائها وأنينها))[12].

كذلك انتفع المنفلوطي مما كان معاصراً له من أفكار تدعو إلى إنصاف المرأةِ ورفع الظلم الذي لحق بها، وقد تجلى ذلك بقصائد الشعراء المعاصرين للمنفلوطي الذين دعوا في قصائِدِهم إلى تعليم المرأه وتحريرها من القيم البالية وكذلك ما اطلعَ عليهِ من روايات ومقالات مترجمة أو كتبها معاصروه، وقد لخَّص المنفلوطي رؤيته تجاه المرأة ((أنْ أنظر إلى المرأة بعين غير العين التي يَنظُر بها الناسُ إليها، وأنْ ألتمسَ لها من العذر- وإنْ زَلَتْ بها قَدَم – ما لا يَلتمِسُهُ لها أحد، وأنْ أنتصفَ لها من الرجل ما وجدتُ سبيلاً إلى ذلك، حتّى يُديلَ لها اللهُ منه))[13]. وفي هذه المقالة دعا المنفلوطي إلى الرأفةِ بالمرأةِ التي فقدت زوجَها ((أيُّها الإنسانُ ارحمْ الأرملة التي ماتَ عنها زَوجها، ولم يَترك لها غيرَ صبيةٍ صغار، ودموعٍ غِزار، ارحمها قبل أنْ ينال اليأسُ منها، ويعبَث الهمُّ بقلبِها فتُؤثِر الموتَ على الحياةِ))[14] كما نالت المرأة الزوجة نصيباً من رحمة المنفلوطي ((ارحمْ الزوجَةَ أُمَّ ولدِكَ وقعيدة بيتك، ومرآة نفسكَ ، لأنها ضعيفة، ولأنَّ اللهَ قد وكَّلَ أمْرَها إليك، وما كان لك أنْ تُكَذّب ثِقَتَهُ بك))[15] ووسعتْ رحمةُ المنفلوطي في هذه المقالة الجاهل وفي ذلك يقول ((ارحمْ الجاهلَ، لا تتحين فُرصةَ عجزهِ عن الإنتصاف لنفسِهِ، فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذَ عقلَهُ متْجراً تربحُ فيه ليكونَ من الخاسِرين.

غلب على المقالة أُسلوب الوعظ والإرشاد، وساق فيها المنفلوطي حُججاً عقليةً استقاها المنفلوطي من ثقافتهِ الدينيّةِ، وقد أبدعَ المنفلوطي في التعبير عن تلك النصائح والمواعظ بعد أنْ صاغها بأساليب متنوعة فتارةً تتداخل مع الخطابة من خلال استخدامه بعض أدوات الخطابة مثل أدوات النداء وأفعال الأمر في قولهِ : أيُّها الإنسان أو كما في هذا النص ((أيُّها الرجل السعيد: كُنْ رحيماً، اشعرْ قلبَكَ الرحمة، ليَكُن قلبُكَ الرحمة بعينها... ولكن اطعمْ الجائعَ واكسُ العاريَّ، وعزَالمحزون، وفرّج كُربَةَ المَكْروب...))[16]

غير أنَّ المنفلوطي يخفِّف من وقع الأمر وسطوة الوعظ على المتلقي و المتمثل بالأفعال السابقة بعدما يربطهُ بشيء جميل وهو لذة الاحسان ويجعل له نتائج ايجابية على المجتمع بأسرهِ فيَنتَفِعُ من الرحمة الفقير و المحسن ((ولم يبقَ ما يعزي الإنسان عنها إلا لذةٌ واحدةٌ هي لذةُ الإحسانِ)). أي إنَّ المُحسن يشعر بلذة الإحسان التي تُزيح عنه هموم الدنيا وأحزانها.

وأجمل ما في أسلوب المنفلوطي هذا التلوين في عرض نصائحهِ، فقد صاغَ بعضها بلغة أدبية منزاحة تُثير وجدان القارئ، من خلال هذه المُقابلات اللفظية والتي هي صورة أُخرى من صور تأثره بأساليب أشهر أعلام النثر العربي القديم الذين كانوا يأتون بمثل هذا الضرب من الكتابة ، ويتضح ذلك في قول المنفلوطي ((إنَّ اليد التي تصون الدموع، أفضل من اليدِ التي تُريق الدماءَ والتي تشرحُ الصدور، أشرفُ

متماثلة في التركيب	متماثلة في التركيب
لأقفرت	الجفون
لاطمأنت	الجنوب

متماثلة في التركيب	متماثلة في التركيب
من	المدامع
في	المضاجع

من التي تَبقر البطون، فالمحسن أفضلُ من القائد وأشرفُ من المجاهد، وكم بين مَن يُحيي المَيّت ومَن يُميت الحيَّ))[17].

إنَّ مثل هذه المقابلات اللفظية اتخذها المنفلوطي وسيلة فاعِلة للتأثير في قرّاء مقالته اذ تسحرهم بصياغاتها الأدبية الجميلة فضلاً عمّا تحمله من طباقات طريفة تعمل على تعميق المعنى في نفوسِهم ويصبح أكثر تأثيراً في نفوسهم .

كما عني المنفلوطي بالإيقاع وأجاد فيه وعرف كيف يَنتَقي الألفاظ و يؤلف بعضها إلى بعض بما يجعلها تُؤَمِّن إيقاعاً يتواءم مع طبيعة موضوعِهِ فحينما يكون حزيناً فإنَّ مثل هذا الإيقاع يُعزز أجواء الحُزن كما أنَّه يلوّن في هذا الايقاع كي لا يمضي على نمطٍ واحدٍ فيبعث الملل في نفوس القرّاء

ويبدو ذلك واضحاً في هذا النص الذي بيَّنَ فيه المنفلوطي فوائد الرحمة إذ استخدم فيه ألواناً من الإيقاع منها إيقاع التقسيم في قولهِ : ((لو تراحمَ الناسُ، لما كان بينهم جائع، ولا مغبونٌ ولا مهضومٌ)). فيبدو إيقاع التقسيم في جائع ، مغبون ، مهضوم .

ثم ينتقل إلى إيقاع التوازي ((ولأقفرت الجفون مِنَ المدامع ، ولاطْمَأنت الجنوب في المضاجع))

متماثلة في التركيب	متماثلة في التركيب
أطعمْ	الجائع
أكسُ	العاري

متماثلة في التركيب	متماثلة في التركيب
عزّ	المحزون
فرّج	المكروب

ومثل قوله الذي يتداخل إيقاع التقسيم وإيقاع التوازي مثل ((اطعمْ الجائع، واكسُ العاري، وعزّ المحزون، وفرّج كربة المكروب))

ووظف المنفلوطي في مقالتهه أسلوب السخرية و التهكم ولاسيما الفكاهه السوداء قي قوله ((ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار ودموع غزار)) فإن مثل هذا النص يكسر أفق التوقع ،فالقارىء ينتظر من الزوج ان يترك لها دارا ، مالا ...الخ تنتفع منه لكنه يصدم المتلقي في قوله ((صبية صغار ودموع غزار)) وهذا يجسد ما قاله (أ.ر.تومس) في كتابه((الهزء الجاف)) بأن العنصر الكوميدي من عناصر المفارقة ((إن تضاد المفارقة لكي يكون كذلك يجب ان يكون مؤلماً وكوميدياً معاً يثير الضحك لكنه يتلاشى على الشفاه ...نحن ندرك النكته لكننا نتألم منها))[18]

واستخدم المنفلوطي بما يشبه الشعرية الحديثة التي تقوم على المفاجئة والغرائبية التي تصدم المتلقي كما في قولِهِ: ((فتبسم سُروراً ببكائك، واغتباطاً بدموعك))

ففيها ما يثير الغرابة ويقطع أُفق التوقع فأنت لا تبتسم سروراً ببكائك بل بفرحك ولا اغتباطاً بدموعك)). غير أننا عندما نحلّل هذه الجمل نجدها متوائمة وصحيحة في بنيتها العميقة وليس فيها شيء من المفارقة ، فالبكاء عند الرومانسيين يطهر الاحزان ويزيح الهموم ويجعل النفس سعيدة و مرتاحة.

المصادر والهوامش

(1) الأدب العربي المعاصر في مصر:228
(2) المصدر نفسه:231
(3) الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره، د.سالم احمد الحمداني والدكتور فائق مصطفى أحمد، دار الكتب، جامعة الموصل:1987
(4) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، د.سلمى الخضراء الجيوسي: 193
(5) تطور الأدب الحديث في مصر، د.أحمد هيكل: 116
(6) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث: 193
(7) الأعمال الشعرية الكاملة ،مصطفى لطفي المنفلوطي ،ضبط ومراجعة أحمد زهوه ،دار الكتاب العربي ،بيروت ، 2008 :53
(8) المقال السردي ،إبراهيم عبد القادر المازني إنموذجا :208
(9) الأعمال الكاملة ،مصطفى المنفلوطي :53
(10)المصدر نفسه :18
(11)المصدر نفسه:18
(12)الأعمال الكاملة ،مصطفى لطفي المنفلوطي :54
(13) المصدر نفسه :20
(14)المصدر نفسه :55
(15) المصدر نفسه :56
(16)المصدر نفسه :56
(17)المصدر نفسه :56
(18) المفارقة وصفاتها ،دي.سي ميويك ،ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ،دار المأمون ،بغداد 1987 :54